وقد أخذ آدم من هذه التجربة "وقاية" ورأى أمامه التجربتين: العلم والاختيار. الطاعة وحرية الإرادة، ومهمته أن تكون حريته في إطار الطاعة. وهذه هي حقيقة الخلافة في الأرض وعمرانها بالصالحات، وكل فرد فيها مسئول عن عمله أمام ربه. وصدق الله العظيم: ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴾ (مريم: ٩٥).

## (٤)

## مع العدل الإلهي

في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أحكام كثيرة:

أولاً: إن الله تعالى لا يؤاخذ الأطفال بكفر الآباء. ولا الأموات بأخطاء الأحياء أو عصيانهم، ما داموا غير متسببين له. ولا يؤاخذ أحدًا بجرم غيره. وذهب جماعة من الفقهاء ـ كما يذكر الفخر الرازي في تفسيره ـ إلى الامتناع عن ضرب الدية على العاقلة: أي أن يقوم رهط المتسبب في القتل الخطأ بالتعاون على دفع دية القتيل.

وأُجيب عنه بأن المخطئ ليس بمؤاخذٍ على ذلك الفعل، فكيف يصير غيه مؤاخذًا بسبب ذلك الفعل؟ بل ذلك تكليفٌ واقعٌ على سبيل الابتداء من الله تعالى. أ.هـ (٢٠: ١٧٢).

ولنا وقفة مع قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ وفيها أيضًا يتجلى العدل الإلهي. فكيف يحاسب الله على رسالةٍ قومًا لم تبلغهم هذه الرسالة؟ وهل إعلان الرسالة يكفي لكي يدينَ الناس جميعًا، من بلَغتَهم ومن لم تبلغهم؟

إنني اطمئن في هذا إلى شرح الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمود شلتوت رحمه الله، قال في كتابه: "الإسلام عقيدة وشريعة" ص ٢٩، ٣٠.

فبعد أن ذكر الحد الفاصل بين الإسلام والكفر وهو الإيمان بالله وتوحيده وتنزيهه وتفرده بالتصرف في الكون، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.. قال: "من لم يؤمن بجانب من هذه الجوانب أو حلقة من هذه الحلقات لا يكون مسلمًا، ولا تجري عليه أحكام المسلمين فيما بينهم وبين الله، وفيما بينهم بعضهم وبعض، وليس معنى هذا أن من لم يؤمن بشيء من ذلك يكون

كافرًا عند الله، يُخلدُ في النار، وإنما معناه أنه لا تجري عليه في الدنيا أحكام الإسلام، فلا يُطالب بما فرضه الله على المسلمين من العبادات، ولا يُمنع مما حرمه الإسلام كشرب الخمر وأكل الخنزير والإتجار بها، ولا يُغسّله المسلمون إذا مات، ولا يصلّون عليه، ولا يرثه قريبه المسلم في ماله، كما لا يرث هو قريبه المسلم إذا مات".

ثم يقول الشيخ شلتوت كلمة مضيئة في تحديد الحكم بالكفر: "أما الحكم بكفره عند الله فهو يتوقف على أن يكون إنكاره لتلك العقائد أو لشيء منها = بعد أن بلغته على وجهها الصحيح، واقتنع بما فيها بينه وبين نفسه، ولكنه أبى أن يعتنقها ويشهد بها عنادًا واستكبارًا، أو طمعًا في مال زائل أو جاه زائف، أو خوفًا من لوم فاسد، فإذا لم تبلغه تلك العقائد، أو بلغته بصورة منفرة، أو صورة صحيحة ولم يكن من أهل النظر، أو كان من أهل النظر ولكن لم يوفق إليها، وظل ينظر ويفكّر طلبًا للحق، حتى أدركه الموت في أثناء نظره - فإنه لا يكون كافرًا يستحق الخلود في النار عند الله.

ومن هنا كانت الشعوب النائية التي لم تصل إليها عقيدة الإسلام أو وصلت إليها بصورة سيئة منفرة، أو لم يفقهوا حجته مع اجتهادهم في بحثها - بمنجاة من العقاب الأخروي للكافرين، ولا يطلق عليهم اسم كافر.

والشرك الذي جاء في القرآن أن الله لا يغفره، هو الشرك الناشئ عن العناد والاستكبار.. الذي قال الله في أصحابه: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ (النمل: ١٤).

ثم يوضح - رحمه الله - الطريق إلى الإسلام فيقول: "والإسلام حينما يطلب من الناس أن يؤمنوا بتلك العقائد، لا يحملهم عليها إكراهًا، لأن طبيعة الإيمان تأبى الإكراه، ولا يتحقق إيمان بإكراه، وقد جاء في القرآن الكريم ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

وجاء فيه خطابًا لنبيه محمد ﷺ ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ٩٩) أ. هـ..

فالله تبارك وتعالى لا يحاسب على الإسلام إلا من وصل إليه الإسلام صحيحًا، وكان قادرًا على استيعابه ثم انصرف عنه جاحدًا، فهذا هو الكفر.. أو قبله مصدقًا وهذا هو الإيمان".

وهنا تبدو المسئولية الحاضرة والمستقبلية التي يحملها المسلمون في نشر الإسلام امتدادًا لمهمة الرسول عليه الصلاة والسلام.

وهناك أساليب مستمرة، وأخرى متغيرة، وكلها مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

وأولها الكلمة الطيبة ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ (النحل: ١٢٥).

والحكمة تشمل العلم ودائرة أوسع وهي حسن الوصول إلى الهدف ومستواه الأخلاقي ومدى فائدته، وإن أخطر ما أصاب العلم الحديث أنه فقد الحكمة، وأصبح سلاحًا في يد الأقوياء، وتغلّب حب الكشف العلمي على الميثاق الأخلاقي الذي ينبغي أن يرتبط به العلماء في تجاربهم، حتى اختلط عندهم ما نراه حلالاً وما نراه حرامًا. والموعظة الحسنة هي القادرة على أن تصل إلى القلب والعقل معًا.

ثم إن الجدال في ذاته اختيار، والآية تحدد الاختيار بأن يكون الأحسن. وتأمّل تكرار الحسنُ هنا في الموعظة والجدال، وترابطهما مع الحكمة، لتحس أن الدعوة إلى الله هي في جوهرها اختيارات كريمة ملائمة وقادرة على التأثير.

وإذا انتقلنا من المستوى النظري لبلاغ الدعوة إلى المستوى التطبيقي، وجدت أن أوضاع المسلمين هي أقوى وسائل البلاغ: في صدر الإسلام كان خُلُق الرسول ـ وهو الصادق الأمين ـ وطهارته وحسن تعامله مع الكبير والصغير والغني والفقير.. حتى مع الحيوان الأعجم كان هذا جميعًا أقرب الوسائل إلى قلوب الذين يدعوهم إلى الله.

وفي عهد الفتوح كانت أخلاق المسلمين وحسن تعاملهم مع الشعوب التي حملوا الإسلام إليها أقوى من أي عظة في فتح القلوب للإسلام.

وفي عهد الازدهار الحضاري كانت إضافات علماء الإسلام، ولا تزال حتى الآن من أقوى الشواهد العلمية والأخلاقية على مكانة الإسلام وصلاحه.

ولما جاء عهد التدهور، وانحسرت الموجة الإسلامية، لم تبق إلا المبادئ تدافع عن نفسها بقوتها الذاتية، وبقوة الدفع التاريخي، ووقع الآخرون، بل ونفر من المسلمين في تناقض، إذا كان هذا هو مستوى المبادئ ارتفاعًا وسموًا، فلماذا لم يرتفع المسلمون بدينهم، وهم به مؤمنون؟ ولماذا قعدوا به وهو يدعوهم دائمًا إلى كل فضيلة؟

إن السائح الغربي أو الشرقي الذي يزور أرض الإسلام، سيرى ـ وله في هذا العذر ـ أن صورة المسلمين هي الإسلام، ومن العسير أن تقنعه بالإسلام وهو يرى تخلف المسلمين.

ونعود إلى الآية الكريمة ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ وإلى أن البعث المقصود يقتضي وصول الدعوة سليمة إلى عقل وقلب يعيها، لترى أن أفضل وسيلة للدعوة إلى الإسلام هي قبول التحدي الحضاري المعاصر، وتوجيه شبابنا إلى العمل والعلم والإنتاج، وأن تكون العلاقات بيننا قائمة على الحوار الراشد الذي يستهدف الصعود بالحاضر إلى أفق المستقبل، ويصون الوقت والجهد فلا يضيعان في مناقشات نظرية وجزئية تضيق بها آفاق الحياة، ولا تتسع للأمور العريضة التي ينبغي أن يعانقها الوجود الإسلامي.

إنني أحس أن آلاف الأيام الغالية ـ ولا أقول الساعات ـ من أوقات الشباب نستطيع أن نُحسن استثمارها بما يعود عليهم وعلى أوطاننا وعلى الإسلام بمزيد من الخير، إذا استطعنا توجيه الشباب إلى قبول التحدي الحضاري المعاصر، ففي ارتفاع مستوى العالم الإسلامي علميًا وتقنيًا ـ وعنده الركيزة الأخلاقية من دينه ـ في هذا كله أصلح بلاغ للناس عن الإسلام، وإيصال دعوته إلى الآخرين.

هذا ونستطيع أن نترجم الكلمات، لا إلى إنتاج فقط، وإنما إلى خدمات باسم الإسلام للمحتاج والمريض والضعيف، وتعاونٍ بين الشعوب الإسلامية، وفيها القادر ومن قُدِر عليه رزقُه، والعون لا يكون بمجرد تقديم المال، وهو في ذاته محمود، وإنما بالتعاون على رفع مستوى الشعب الذي نقدم إليه العون ليكون على الإنتاج أقدر.. كل هذه صور من الدعوة إلى الله وامتداد لإشراقة الإسلام من عهد النبوة.

(٥)

## المسئولية الجماعية

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾

تأتي هذه الآيات عن المسئولية الجماعية، بعد آيات المسئولية الفردية في قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾

ونبدأ أولاً بالجانب اللغوي، وما تحمله الكلمات من معانٍ:

فالخطاب في الآية جماعيّ، والقرية هنا مجتمع من الناس، لهم نظامُ حياة وتعامل سياسيّ واقتصاديّ واجتماعيّ، وروابط داخليّة وخارجيّة. ولهم وجود مستقر في قطعة من الأرض. فالقرية كائن جماعي إذا صحّ لنا هذا التعبير، تقابل الإنسان وهو الكائن الفردي. وإن كانت له بدوره علاقاته.

والقرية لغويًا تفيد التجمّع، وهو أسلوب يختلف عن تجمّع المدينة في الاصطلاح القرآني..

لفظ مدينة في القرآن لا يحمل معنى الالتقاء على كلمة سواء، ولا التجانس، ودلالته على التفاعل وتعدد الآراء أقرب.

وصف الله دار الهجرة بأنها المدينة.. وإذا رجعنا إلى سورة براءة ـ وهي التوبة ـ سنرى فيها صنوفًا من المنافقين يعيشون مع أروع صور الإيمان، كما نرى فيها أهل الكتاب من اليهود يسكنون قلب المدينةِ وأطرافَها الجنوبيةَ والشرقيةَ. ونرى الجُهْد الذي بذله الرسول عليه الصلاة والسلام ليؤاخي بين المؤمنين من أهلها.. ولنقرأ في هذا نماذج من قوله تعالى:

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ (التوبة: ١٠١).

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ (التوبة: ١٢٠).

وفي قصة لوط نقرأ قول الله تعالى في سورة الحجر: ﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾

وكذلك في قصة موسى: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ (القصص:١٥).

ونستطيع أن نتبع مواقع كلمة مدينة لنحس فيها هذا الصراع بين الآراء والأفكار.. كأنها بوتقة تنصهر فيها مواد متعددة.

ولا كذلك القرية. وهذا أكثر دلالة على التجمع في خيرٍ أو شر الخير يأتيها، إذا كان أهلها على كلمة سواء.. فإذا اختلفوا وسيطر الفساد على قِطاعٍ منها، وعَجَز أهلُ الحق عن مقاومته، استشرى الشر حتى عَمّها جميعًا.

وفي هذا نقرأ قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ (النحل: ١١٢).

وفي أكثر من موقع من القرآن بين الله لنا سبب فساد القرى وهو سوء سلوك المترفين من أبنائها. وأن الترفَ قرينُ الفسادِ والإفسادِ على مستوى الحياة الفردية والجماعية، أو الدولة كلها.. وما نقرؤه في القرآن نراه في الحياة والتاريخ. وفرق بين الترفَ والغنى، وبينهما وبين الاستغناء.

وفي الاستغناء يغلب الموقفُ النفسيُ، أي أن تكون حاجات الإنسان في حدودِ قدرَتِه أو أضيْق، فيكون غناهُ بقدر استغنائِه وتحرره من إضافاتٍ في الحياة تأسِر غيْرَه.

وإذا تأملنا قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾

رأينا فيها ملْحظًا عميقًا. الآية لم تقل: إن الإنسان ليطغى إن استغنى.. فقد يكون الإنسانُ ذا مَال ووفرةٍ، وغنيًا بالمفهوم الحسابي.. ولكنه يحس دائمًا الافتقار إلى الله تعالى، وأنه ـ سبحانه ـ استخلفه على هذا المال لينظر كيف يعمل فيه؟ ويؤمن أنّ في مالِه حقًا للسائل والمحروم، وهو ينفق منه سرًا وجهْرًا، هذا هو الفقيرُ إلى الله، المتواضعُ في محرابِ ربه، المبسوطُ اليد بالخير، المقبوض اليد عن الشر.... ولنذكر ما قصّه الله عن سيدنا سليمَان عندما رأى عرشَ ملكةِ سبأ مستقرًا عنده، فقال:

﴿ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ (النمل: ٤٠).

وإذا كان الغنى في أساسه مفهومًا حسابيًا، إلا أن له حقيقةً نفسية، يقول النبي عليه الصلاة والسلام "ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس" (رواه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة: الجامع الكبير ١: ٦٧٧).

وإذا رجعنا إلى كتاب الجامع الكبير للسيوطي في الأحاديث التي تبدأ بكلمة "ليس" وجدناها ردًا لمعنى قريب إلى معنى أعمق، كقوله ﷺ: "ليس الإيمانُ بالتمني ولكن ما وَقَر في القلبِ وصدَّقه العمل" و"ليس الصيامُ من الإكلِ والشرب إنما الصيامُ من اللغوِ والرفثِ" و"ليس الخَبر كالمعاينة" وحقيقةُ الغنى في هذا الحديث تلتقي مع الاستغناء، مع إحساس النفس بالافتقار إلى الله.. أما الموقفُ الذي يظن فيه الإنسانُ أنه استغنى بنفسه أو بماله فهذا هو الطغيانُ الذي ذمّه الله بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ وهو المدخل الشريرُ إلى الترف المُهْلك.

وصفوة القول أننا نود أن نفرّق بين أمرين: وجودِ الغِنى، وموقفِ الإنسان منه. وأن الغِنى في ذاته محمودٌ. وهو من الله نعمةٌ واختبار. وأن الموقف متغير: فيه المحمودُ والمذمومُ، وصدق الله العظيم: ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ

﴿ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ (الليل: ٤ ـ ١٣).

أما التَرَف لُغَة فهو الطغيان المصاحب للغنى. يقال أتْرفَتْه النعمةُ أي أطغته (الصحاح للجوهري). هي تحولُ الاستغناء بالذاتِ والمنصبِ والمالِ إلى سلوكٍ اجتماعي معبّر عن ذلك، لذلك ما جاء الترفُ في القرآنِ إلا مذمومًا، ولا جاء ذكرُ المترفين إلا في الفسادِ والإفساد.. ولا كذلك الغِنى.. والغَنّي من أسماء اللّه الحسنى. وقد استعاذ المصطفى من الكفر والفقر: الأول خلُو القلب من الإيمان، والثاني خلو اليد من المال..

ومما جاء في ذم الترف في القرآن قول اللّه تعالى:

١-﴿ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ (هود: ١١٦).

٢-﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ (سبأ: ٣٤).

٣-﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ (الزخرف: ٢٣).

وهذه الآيات تضيف إلى الترف ظاهرةً مُصاحبة، وهي الجمودُ على الأوضاع القائمة التي يستثمرونها لأهوائِهم ومواقِعهم الاجتماعية، وسيطرتِهم الاقتصادية دون رغْبةٍ في تغيير.. فالتغييرُ في ذاته جهدٌ وتصورٌ ومعاناةٌ في التنفيذ، وهم عن كل هذا ناكبون.

أما عن الجانب التاريخي، فلنا أن نربط بين عهودِ الترف في الحياة الإسلامية، وما كان بعدها من نكباتٍ اجتاحت ممالكَ بأسرها.. ولنستعدْ مظاهرَ الترفِ في العهدِ العباسيّ الثاني، وتفكك المسلمين، والصراعاتِ المذهبيةِ والطائفيةِ، وقيامَ أحياءٍ بعضِها على بعض تحت راياتِ التعصبِ المذهبي، وما كان بينهم من عُدْوانٍ وتخْريبٍ وتحريق.. مما فتح الباب واسعًا أمام الغزو المغولي الذي استغل هذه الثغرات جميعًا واستطاع ـ بمعونةِ بعض أهلِ بغداد ووزرائِها ـ ومرة أخرى نقول: تحت راياتِ العصبياتِ المذهبية، استطاع أن يجتاح عاصمةَ

الدنيا وقتئذ، ويوقَع بها مأساةً من أبشع ما مرَّ على تاريخ الإسلام في عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، وهو الاجتياح الذي لم يوقفه - بعد تقدمه إلى الشام - إلا السلطان قُطز الذي زحف بجيشه من مصر والتقى بالمغول في معركة عين جالوت بعد هذا بعامين، وكانت نقطةَ التحولِ في المدِ المغولي وانحساره عن أرض الإسلام.

ومثل ذلك كان في سقوط غرناطة بعد أن بلغت مداها في الترف دون أن يكون للدولةِ القوةُ الحقيقية التي تحميها، وبسقوطِها غَربت شمسُ الإسلام عن الأندلس في عام ٨٩٧ هـ/ ١٤٩٢م.

**تحليل:**

ما المقصود من قوله تعالى: (وإذا أردنا) وما العلاقة بين الإرادة والفسق الوارد في الآية.. هذا بعد أن رأينا علاقة الفسق بالترف فيما سبق من أحاديث.

ولنذكر أسلوب الحياة في مكة وقت البعثة النبوية، ومدى سيطرة قادتها على مقدراتها، ونظرتهم إلى الزعامة والقيادة كيف تكون. كانوا يربطون بين الوضع الاقتصادي والاجتماعي، وعندما نزل الوحي على المصطفى عليه الصلاة والسلام، وهو من هو في ذؤابة قريش نسبًا، إلا أنه في المال قُلّ، كان من اعتراضهم على نبوته ما قصه علينا القرآن الكريم: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾ (الزخرف: ٣١، ٣٢) ومعنى ليتخذ: أي كان العاقبة أن يتخذ بعضهم بعضًا سخريًا. فاللام هنا للعاقبة. وسُخريًا هنا تحمل المعنيين التسخير أو السخرية.

والذي يعنينا في هذا المقام هو ربط بعض قادة قريش بين مقام النبوة والمكانة الاقتصادية أو المنزلة الاجتماعية والقيادية.

ففي المترفين هذا الاعتراض على التغيير، وهذه الرغبة في المحافظة على الأوضاع القائمة. والتاريخ في مساره العام تفاعلٌ بين الاستمرار والتغيير. والتغيير له قواعده إلى الأحسن أو الأسوأ، حسب اتجاهِ وتوجيهِ القوى المسيطرة على المجتمع. وهو في الأمرين نابع من إرادة التغيير ذاتها يقول الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ ﴾ (الرعد: ١١).

**والآن ما المقصود من قول الله تعالى: (وإذا أردنا)؟**

سأبدأ بآية سورة الرعد، والقرآن يفسّر بعضه بعض. ففي الآية مستويان من التغيير:

**الأول** : قول الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾

**والثاني:** قوله تعالى ﴿ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ ﴾

ونستطيع أن نفهم الآية في سياقها، فبعد هذه الآية مباشرة يقول الله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ١٢ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ﴾ (الرعد: ١٢، ١٣).

والمحال: التدبير لإهلاك الجاحدين في قوةٍ لا تُقاوَم، وأخذه إياهم. (معجم ألفاظ القرآن الكريم لمجمع اللغة العربية بالقاهرة: مادة: محل).

المستوى الكوني ـ وفيه الرعد والبرق والسحاب الثقال والصواعق ـ فوق طاقة البشر، هو مستوى من القضاء والقدر. ولهذه الظاهرات آثارها التي يستبشر بها الناس إذا وافقت حاجاتهم من ري وزراعة ورعي وتوليد طاقة، وهي أيضًا مصدر خسران وتدمير إذا ما اشتدت واكتسحت ما يعترضها من الحقول والمساكن والمصانع وجرَفت الطرق وقطعت المواصلات.

والإنسان، مع هذا المستوى الكوني يحاول أن يحد من أخطاره، وأن يستفيد من السيطرة على جانب من هذه الظاهرات، كما يحدث ـ كمثال ـ في ترويض الأنهار والتحكم في مجاريها بإقامة السدود والخزانات والجسور، وإقامة محطات الإنذار المبكر التي تحذر السكان عند اقتراب العاصفة ليأخذوا حذرهم..

هذا مستوى نستطيع أن نميز فيه بين قطاع يستطيع الإنسان أن يتحكم فيه، وقطاع لا زال فوق طاقة الإنسان.

نأتي بعد هذا إلى مستوى التغيير الاجتماعي وهو المقصود من الآيتين: آية سورة الرعد: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)، وآية سورة الإسراء وهي محور الحديث، وذلك في قول الله تعالى:

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾

في الآية تهديد لمشركي قريش، وتحميلهم تبعة إضْلال مكة إذا ما ظلوا على معاندة الرسول عليه الصلاة والسلام، وظلوا حائلاً بين نور الدعوة وبين قومهم. والآية تحمّلهم تبعة أهل مكة جميعًا، كما تحمّل أهل مكة مسئولية الرضا بأن يتحكم فيهم هؤلاء المترفون الذين رفضوا الرسالة، لأنها لم تنزل على أحد منهم.. كأنهم هم الذين يختارون المرسلين.. أو كما قال القرآن الكريم:

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ والرحمة هنا هي حمل رسالة الإسلام.

فالارتباط وثيق بين هذه الآية وما قبلها، وهو قول الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ وما دام الرسول قد جاءهم فعليهم أن يقوموا بأنفسهم بمهمة التغيير في المجتمع، ويخلعوا عن أعناقهم أغلال الخضوع للمترفين، ويكسروا القيود التي تربطهم بالأوثان والشعائر البالية المرتبطة بها.

كان لابد من تغيير، ومن تحريك المجتمع إلى ما هو أفضل، وهذا ما قام المؤمنون بجانب منه. وكان من المؤمنين أغنياء كأبي بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف. وكان منهم فقراء كبلال بن رباح وآل ياسر. وكان فيهم جميعًا القدرة على اختراق حجاب المترفين والملأ من قريش، ليروا نور الإيمان ويتبعوا الرسول، رغم كل ما ألحقته بهم قريش من عنت، شمل جوانب الإيذاء البدني والاقتصادي والمقاطعة الاجتماعية.

فمعنى ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ أن الله تعالى يبين لنا قاعدة متى توفّرت مقدماتها، تحققت نتائجها، إنها معادلة اجتماعية. أما المقدمات: فهي موقف المترفين وإعراضهم عن الحق، وقدرتهم على السيطرة وجذب الجموع وراءهم في حرب الدعوة.. إذا حدث

هذا كانت النتيجة أن الدمار يحل بأهل القرية: المترفين لأنهم قادوا هذه الحرب ضد الدعوة، والجموع التي انساقت وراءهم متأثرة بمراكزهم دون أن تتحرر من هذه القيود وتبصر الحق.

فإرادة الله بالإهلاك ليست سابقة لفسق أهل القرية.. وإنما الفسق هو المتقدم والإهلاك له نتيجة.

نأتي إلى كلمة "أمَرْنا" ما معناها؟

إن الله لا يأمر بالفسق. وإنما أمرهم الله بالهدى فعصوا وفسقوا كما تقول: أمرته بالخير فعصاني أو أمرته فعصاني.

فأمرنا معناها أمرناهم بما نأمر به اتباع الرسل، أي بعثنا إليهم الرسول وأمرناهم بالطاعة، فعصوا رسول ربهم وفسقوا في قريتهم.

وقراءة الجمهور "أمَرْنا" بهمزة واحدة وتخفيف الميم. وهناك قراءة أخرى "آمرنا" أي جعلناهم آمرين أي داعين قومهم إلى الضلالة، ومن تفسير "أمَّرنا" جعلناهم أمراء وهو قريب من القول الثاني.

و"الفسق" هو الخروج عن الطريق. والمقصود به في القرآن الكريم الخروج عما أمر الله به.

"والقول" هو ما يبلّغه الله إلى الناس من كلام بواسطة الرسل. وهو هنا قول الوعيد كما في قوله تعالى:

﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴾ (الصافات: ٣١).

"والتدمير" هدم البناء وإزالة أثره. والمقصود إهلاك أهل القرية "التحرير والتنوير ١٥: ٥٤ ـ ٥٥).

وللجمع بين مستويات التغيير الجماعي والفردي تبدو أهمية تكوين شخصية الفرد، ومدى ما يتمتع أو ما ينبغي أن يتمتع به، من حرية التعبير في مجتمعه، وتحرير إرادته من تحكم الصفوة، أو القلة، وإيجاد معابر الحوار بين القيادات والقواعد، ومناقشة المستجدات في الحياة والوصول إلى نتائج إيجابية يتغير بها المجتمع إلى الأحسن، دون أن يقع تحت قهر الغِنَى أو السيطرة الاقتصادية أوالسياسية.

فالإسلام لا يعامل المسئولية على مستويات منفصلة إلا للدراسة، وهي في واقع الحياة متفاعلة متداخلة، وعلى المجتمع أن يضع له من القواعد ما يكفل استمرار الحوار بين القواعد والقيادات وبين الحاضر والمستقبل.

## المسئولية الجماعية ونماذج من التاريخ:

يقول الله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ (الإسراء: ١٧).

"كم" في هذه الآية تدل على الكثرة.

و"**أهلكنا**" هنا مرتبطةٌ بما قبلها وهو فساد المترفين وإفسادهم.

و"**القرون**" جمع قرن وله مفهومان: أولهما زمني والثاني بشري. أما الزمني فهو المدة الطويلة قد تكون مائة عام وهو الأشهر، وقد تقل إلى أربعين.

وأما البشري فهو الجيل من الناس. وهو المقصود من حديث رسول اللهﷺ: "خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم" أراد أهل قرني.. أو الجيل الذي يعيش معي. وهم الذين تأدبوا بأدب النبوة، وحملوا مع المصطفى عليه الصلاة والسلام مسئولية الدعوة في مبعثها الأول إيمانًا وتحملاً وهجرة وجهادًا وإقامة لدولة الإسلام في المدينة، ونشرًا للإسلام في الجزيرة العربية وما وراءها.. ويكفي أننا حتى الآن، وحتى تقوم الساعة نعيش على ثمارهم، ونتحرك على آثارهم.

القرون إذن تحمل معنى أجيال جاءتها دعوة الله على يد أنبيائه ورسله، فمنهم من آمن ومنهم من كفر.. والإيمان بطبيعته صعود. والصعود صعب إلا على من يسّره الله له. ودائمًا .. كلما اقتربنا من القمم، كلما قلت المساحة.. هكذا في مشاهد الطبيعة ومشاهد البشر معًا. أما الهبوط والخلود إلى الأرض فأيسر وأقرب إلى نفوس الكثيرين.

ولهذا وصف الله أهل اليمين بقوله: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ (الواقعة: ٣٩، ٤٠) ووصف السابقين بأنهم ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ (الواقعة: ١٣، ١٤).

فإذا قال ربنا وكم أهلكنا من القرون، مما يدل على كثرة الهالكين فهذا أمر يصدق التاريخ والواقع معًا.

**ولكن: لماذا من بعد نوح ؟**

إنه الأب الثاني للبشرية، وأغلب ما جاءنا عن قصة الأب الأول كان بينه وبين خالقه. ولم يذكر القرآن تفصيلاً عن حياته الأرضية، إلا ما جاء في كلمات تلقاها آدم من ربه، وتحديدٍ لمساره هو وأبنائه في هذه الحياة.

وإنما التفصيل جاء في قصة نوح.. هنا الرسالة الأولى المتكاملة للتوجيه الإلهي بكل تفصيله. قيام نوح بالدعوة إلى الله. الصراع الطويل بينه وبين قومه. أكثر من حوار ذكره القرآن الكريم في هذا الجهاد الطويل. الألم الذي كان يعتصر قلبه حين يرى نفرًا من أقرب الناس إليه لا يؤمنون به: زوجه التي تقاسمه الحياة. ولده الذي يعيش في بيت النبوة ولا يؤمن بما يقول الأب الصالح. الجهد الكبير الذي قام به نوح والذين معه في صناعة الفُلْك وتحميله، ثم الإيمان العميق الذي تحلى به هو والذين معه، وهم يهاجرون هجرة زمانية ومكانية معًا بين موج كالجبال. ونقف عند قول الله تعالى واصفًا هذا المشهد الرهيب: ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ من يجري بمن؟ السفينة تجري بنوح والذي معه. من الربان؟ ما الطريق؟ أين الهدف؟ صورة من صور الإيمان العميق. بل صور متتابعة من الإيمان العميق تترى على الذهن حين تقرأ هذه الآية ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ ليس نوح وحده الذي مرّ في التجربة.. تجربة التكذيب، وموقف المترفين منه، والسخرية التي يلقاها من قومه. ولكن بعد هذا قرون وقرون لم تتعظ بما حدث مع الأب الثاني للبشرية، وحقت عليهم كلمة العذاب..

ولقد قص القرآن الكريم على المصطفى عليه الصلاة والسلام أخبار بعض هذه القرون، وعُني أكثر ما عنى بالقرون التي كانت تعيش على طريق التجارة بين اليمن والشام.. في الجنوب عاد قوم هود وكانت حياتهم في الأحقاف من بلاد اليمن. وإلى شمال مكة والمدينة ثمود قوم صالح، وأهل مدين ونبيهم شعيب، ثم أنبياء عاشوا في الهلال الخصيب الذي يضم العراق والشام: آل إبراهيم. ولداه إسماعيل وإسحق. ومن وراء إسحق يعقوب ويوسف والأسباط وموسى وعيسى. ومن الأنبياء من ذكر الله قصصهم مفصلاً ومنهم من ذكره مجملاً، ومنهم من لم يقصصه على المصطفى عليه وعليهم جميعًا الصلاة والسلام.

شريط طويل من العبرة تحمله الآية الكريمة، ثم توجّه الخطاب الذي يحمل السلوى والصبر والتثبيت، وهو قول الله لرسوله: ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾.

هنا انتقال من وعيد المشركين والمكذبين، وتهديدهم حتى يهزّ قوائم هذا المجتمع الذي أعرض مترفوه عن دعوة الحق، كما أعرضت القرون الهالكة من قبل، ثم يخاطب الله ورسوله مثبتًا ومؤيدًا:

(وكفى بربك) الله كافيك يا محمد. أنت لست محتاجًا إلى من ينتصر لك غير ربك. هو حسبك، ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (البقرة: ١٣٧). وتكرر هذا المعنى فيما نزل من الآيات مع اتساع مستويات الدعوة ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٦٢، ٦٣).

أمر هؤلاء المشركين إلى الله سبحانه وتعالى. وعليك يا محمد البلاغ ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ (الغاشية: ٢١ ـ ٢٦).

وتأتي كلمة "بربك" بحرف الجر الباء. الرب: وفيها دلالة القرب والتربية والرعاية. الكاف: ضمير متصل آخر. إنه ربك يا محمد. فأنت يا محمد محصّن بالإسلام، وتقوم بأمره، بأمر من الله ورعاية وتوجيه. وهو كافيك وراعيك وحافظك، والله يعصمك من الناس.

ربك يا محمد بذنوب عباده خبير بصير. ولكن لماذا جاءت هاتان الصفتان ؟

إن الله سبحانه وتعالى مطلع على ظاهر أمر المترفين وباطنهم. فلا يغيب عنه شيء مما يسرون وما يعلنون. أما الإسرار فتكفلت بها صفة "الخبير" وأما الإعلان فتكفلت به صفة "البصير" فكل ما بدا منهم معلوم، وكل ما أسروه أو دبروه ليظهروه بعد حين في صورة تآمر أو تكذيب أو نفاق.. كل أولئك عند الله معلوم. وصدق الله العظيم: ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾

وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾ (طه: ٦ ـ ٨).

وقدّم ربنا ما هو متعلق بالضمائر والنوايا لأن العقائد أصل الأعمال في الفساد والإصلاح. يقول النبي عليه الصلاة والسلام "ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله: ألا وهي القلب".

والآية تدل على عدل الله تعالى. فهلاك من هلك من القرون كان بسبب ذنوبهم. وذنوبهم منهم اختيار ومسئولية. فالله تعالى أمرهم بالخير ودعاهم إليه، وأرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين. فعصوا عن أمر الله، وقاد الملأ منهم قومهم إلى طريق المعصية والفسوق. وحاسبهم الله تعالى على ما ظهر من أمرهم وما بَطَن فهو بهم وبذنوبهم خبيرٌ بصيرٌ.

يقول الإمام الفخر الرازي في تعقيبه عن هذه الآية: "إنه تعالى عالم بجميع المعلومات، راء لجميع المرئيات، فلا يخفى عليه شيء من أحوال الخلق، وثبت أنه قادرًا على كل الممكنات، فكان قادرًا على إيصال الجزاء إلى كل أحد بقدر استحقاقه. وأيضًا منزه عن العبث والظلْم. ومجموع هذه الصفات أعني: العلم التام، والقدرة الكاملة، والبراءة عن الظلم، بشارة عظيمة لأهل الطاعة، وخوفٌ عظيم لأهل الكفر والمعصية".

وينقل الرازي عن الفراء قوله في الباء الواردة في قوله تعالى "وكفى بربك" لو ألغيت الباء من قولك بربك جاز (أي لغويًا) وإنما يجوز دخول الباء في المرفوع إذا كان يُمدح به صاحبه أو يُذم. كقولك كفاك به.. انتهى.. والقول هنا تنزيه لله وثناء عليه بما هو أهله، ولهذا كان للباء مكانها ودلالتها في الآية.. وصدق الله العظيم ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ (النساء: ٨٢).

## (٦)

## طريقتان

يقول الله تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ۝١٨ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ

مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ (الإسراء: ١٨ ـ ٢٢).

أمامنا في هذه الآيات الكريمة صنفان من الناس، وداران للعطاء، ودرجات في التفضيل، واتجاهان في القصد والعبادة.

ولكن لنبدأ بالنظر في ختام الآية الأولى وهي قول الله تعالى في وصف جزاء من أراد العاجلة. ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ ونقارنها بختام الآية الأخيرة وهي قول الله تعالى:

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾.

وبتحديد أكثر: لماذا كانت الأولى مَذمومًا مدحورًا؟، والثانية مذمومًا مخذولاً؟

**الدحـــر** لغةً هو الطرد والإبعاد.

**والخذلان** ترك العون والنُصرة.

والذم وهو الكلمة المشتركة في الاثنين هو ضد المدح كما هو معروف. فلماذا كان مفهوم الطرد والإبعاد في الآية الأولى، ومفهوم الخذلان في الآية الثانية؟

إن الذي طلب الدنيا تعجّل الجزاء وأراده قريبًا. هي حركة في اتجاه معين. والله تعالى أعطى في هذا الاتجاه ما يشاء لمن أراد. ولكننا نرى في الآية اتجاهًا آخر هو الدحر والإبعاد. قل إنه تغيير في الاتجاه مع الاحتفاظ بنفس السرعة. فيَا مَنْ طلبت الدنيا متعجلاً واستوفيت فيها بعض العطاء، هذا إسراع آخر وخذلان ومصير إلى النار والعياذ بالله.

أما في الآية الثانية فقد طلب النصرة من غير الله. وجعل مع الله إلهًا آخر، فما وجد النُصرة في غير الله. وهذا هو الخذلان الوارد في الآية. ومن هنا تبدو حكمة وضع الوصفين في الآيتين: مدحورًا في الأولى، ومخذولاً في الثانية.. وهو في الحالتين مذموم.

ولك أن تنظر إلى الأمر من زاوية أخرى.. في الآية الأولى كان إسراعه إلى الأشياء.. إلى متاع الدنيا .. فكان المقابل إسراعًا إلى متاع آخر هو العذاب في جهنم. وفي الآية الثانية بحث عن نصير. لم يكن البحث عن شيء أو متاع. كان البحث عن قوة، ونسى أن القوة لله جميعًا فكانت النتيجة الخذلان.

نعود إلى الآية الأولى وهذا قول الله تعالى:

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾.

فهنا إرادة. ومع الإرادة مسئولية. ولفظ إرادة: جاء منسوبًا مَرّة إلى العبد ومرة إلى الله تبارك وتعالى. وإرادة الله شاملة. له سبحانه كمال الإرادة والعلم والقدرة والعدل. ومن كمال عدله أنه أعطانا حرية الإرادة والاختيار. وصدق الله العظيم: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (الشمس: ٧ ـ ١٠).

هذان طريقان. والله ألهمك أيها الإنسان القدرة على التمييز بين الفجور والتقوى، وأعطاك حرية الاختيار بينهما.والله وصف ذاته فقال:

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الحديد: ٣)

فما ينتهي إليه اختيارك وبكل إرادتك يعلمه الله. ففي علم الله وكماله يستوي ما كان وما سيكون. فهذه صفة من صفات الكمال. ولا تحمل أي مفهوم للجبر على عباده. وكلنا يحس حريته في الاختيار.. ومن هنا تأتي المسئولية والجزاء والعدل جميعًا.

وعميق قول أبي العلاء المعرّي:

إن كان من فَعَل الكبائر مُجْبرًا فعقابه ظُلمٌ على ما يَفْعل

إن حرية الإرادة من قدر الله. وحين يختار الإنسان بكامل حريته، إنما يتحرك في إطار ما أعطاه الله من حرية، هو بها في أرضه. وهو الكائن المسئول عما يَفعل ويختار.

وبهذا يبدو مفهوم الإرادة إذا كانت صفة الله تعالى. ومفهومها إذا كانت صفة للإنسان.. تمامًا كصفة العلم. فهو على إطلاقه لله تعالى، وفي حدوده بالنسبة للإنسان. وصدق الله العظيم ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ (الإسراء: ٨٥).

وإن هذا الذي أراد العاجلة. ينال منها نصيبًا. وهذا النصيب مقيّد بأمرين: جهوده التي يبذلها، الظروف التي تحيط بالعمل، وهي ليست جميعًا تحت سيطرته، وقد تتدخل فيها عوامل منظورة أو متوقعة، أو عوامل أخرى ليست تحت سيطرته أو في مجال معرفته.

ولهذا تبدو دقة الآية ﴿ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ فالتحديد في جانبيه: البشري والمادي. البشري في قوله تعالى (لمن نريد) والمادي في قوله تعالى (ما نشاء).

ثم يأتي الجزاء بعد هذا. وفيه جانبان: نفسي في قوله تعالى (مذمومًا) ومادي في قوله تعالى (مدحورًا). وبهذا يكون عذابه شاملاً الأمرين معًا، ومقابلاً للهفته على طلب الدنيا. وعجلته في هذا عجلة أنسته الآجلة، وما بيّن الله له من طريقي التقوى والفجور، وما أعطاه من حرية الاختيار بينهما.

نأتي بعد هذا إلى الصنف الثاني الذي بيّنه الله تعالى في قوله:

﴿ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴾

وفيها نرى جملة لا نظير لها في الوصف الأول وهي قوله تعالى:

﴿ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ ﴾

الجملة تدل على تبصر يشمل أمرين: أنه فهم الطريق. وأنه فهم نفسه. فهم الطريق في قوله تعالى: ﴿ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا ﴾.

وفهم نفسه في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾

ونقف هنا قليلاً مع الإمام الفخر الرازي وهو يبيّن الشروط الثلاثة في هذه الآية ونذكرها موجزة:

**أولاً**: أن يريد بعمله الآخرة، أي ثواب الآخرة، فإنه إن لم يحصّل هذه الإرادة، وهذه النيّة لم ينتفع بذلك العمل لقوله تعالى:

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ (النجم: ٣٩) ولقوله عليه الصلاة والسلام: "إنما الأعمال بالنيات". ولأن المقصود من الأعمال استنارة القلب بمعرفة الله تعالى ومحبته. وهذا لا يحصل إلا إذا نوى بعمله عبودية الله وطلب طاعَتِه.

**ثانيًا**: أن يكون العمل الذي يتوصل به إلى الفوز بثواب الآخرة من الأعمال التي يُنال بها ثوابُ الآخرة. ولا يكون كذلك إلا إذا كان من باب الطاعات. وكثير من الناس يتقربون إلى الله تعالى بأعمال باطلة.. كما يتقرب الكفار بعبادة الأوثان، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله.

**ثالثًا**: قوله تعالى: (وهو مؤمن) فإذا لم يوجد شرط الإيمان لم يحصل المشروط.

والله سبحانه وتعالى أخبر أنه عند حصول هذه الشرائط (أي صحة النية والعمل وتوفّر الإيمان) يصير السعي مشكورًا والعمل مبرورًا.

ويشرح الرازي الشكر فيقول إنه مجموع أمورٍ ثلاثة: اعتقاد كونه محسنًا في تلك الأعمال، والثناء عليه بالقول، والإتيان بأفعالٍ تدُلّ على كونه معظمًا عند ذلك الشاكر. والله تعالى يعامل المطيعين بهذه الأمور الثلاثة.. فإنه تعالى عالم بكونهم محسنين في تلك الأعمال. وإنه تعالى يُثني عليه بكلامه. وأنه تعالى يعاملهم بمعاملات دالة على كونهم معظمين عند الله تعالى. وإذا كان مجموع هذه الثلاثة حاصلاً كانوا مشكورين على طاعاتهم من قِبَل الله تعالى.

وإن العبد الصالح يشكر ربه على أنه أنار له الطريق، ثم يلقى الجزاء على الطاعة شكرًا من الله في قوله: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾

**إنما الأعمال بالنيات:**

ذكر الله تعالى صنفين من الناس: من كان يريد العاجلة، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن.

وأود للتمييز بين الأعمال أن أذكر قصة عن حكيم مرَّ على مجموعة من الحجارين (قاطعي الحجارة)، وأخذ يسأل كل واحد منهم عن عمله.. وكان يومًا شديد الحرارة، والعمل مجهد، والشمس ساطعة، وليس بينها وبين الأرض حجاب من سحاب ولا قرب العاملين ظل يأوون إليه.

مرَّ الحكيم حتى اقترب من عامل وسأله: ماذا تعمل؟ فرفع العامل رأسه وجبينه ينفصد عرقًا، والإعياء بادٍ على قسماته، وشيء من الضيق يحبسه الحياء لا تخطئه عين المشاهد ورد قائلاً:

أنت ترى يا سيدي ما أنا فيه. الحر والجهد والإعياء تحت ضغط الحاجة إلى العمل. الفرق بيني وبين المساجين أنهم يضعون في أرجلهم قيودًا من حديد. وهل تظن الفقر غير ذلك. أنا سجين يا سيدي. سجين الجوع والحاجة والضرورة.. دعني بربك لما أنا فيه وتوكل على الله.

وعاد الرجل إلى مطرقته يرفعها ويهوي بها على الحجر أمامه.. وانصرف عنه الحكيم إلى رجل آخر وطرح عليه السؤال: ماذا تعمل؟ فقال الرجل: أقطع أحجارًا. هنا رزق أولادي. من الحجارة الصلبة أحاول أن أبني لهم مستقبلاً. وأسأل الله أن يعينني ويمنحني القوة على أن أتابع حمل مسئوليتي معهم.. إنهم والحمد لله موفقون في دراستهم. ومن نجاحهم أستمد العزم. ومن عملي يستمدون الرغبة في التفوق.. ثم قال للحكيم: يبدو يا سيدي أنك رجل صالح، وعندما تؤدي صلاتك ادعُ لأولادي ولأولادنا جميعًا بخير. وفي حفظ الله.

وانصرف عنه الرجل الصالح إلى حجّار ثالث.. كان يقطع الحجارة كأنما يتكلم معها بأكثر من مطرقة.. هذه مدببة. هذه مسننة. هذه كبيرة. وهذه أصغر.. وسأله ماذا تعمل؟ فقال الحجار: أقطع أحجارًا ستدخل في بناء مسجد. هذه من أحجار الواجهة. وتحتاج إلى دقة في قطعها بعد اختيار أنسب الأحجار من حيث الصلابة واللون.. الحمد لله الذي يسّر لي أن أعمل في بناء بيت من بيوته. أحس أنني أسبّح الله حين أقوم بإعداد الأحجار لبيته. وأدعو الله ألا يحرمنا من دخول بيوت الله والصلاة فيها.

وانصرف الحكيم وهو يفكر..

هؤلاء ثلاثة يعملون في قطع الحجر: الأول لم ير في عمله إلا الشقاء والتعب، وأنه سجين عمله، يعيش حياته بعقلية السجين. ورأى الثاني في عمله باب الرزق له ولأولاده ووسيلته إلى بناء مستقبل أسرته.. وكأنه وهو يقطع الأحجار يتذكر مستقبل الأبناء ويستمد منهم قوة.. ورأى الثالث في عمله شيئًا أوسع وأرحب من عالم الأسرة. لقد تخطى حاجز التعب بالصبر، وتخطى حاجز الأسرة دون أن يتنكر له. وأحس لذة العبادة فيما يعمل فكان أوسع الثلاثة دائرة وأكثرهم سعادة بما يعمل.

ظاهر العمل واحد هو قطع الأحجار، وحقيقة العمل مختلفة. وأظن أن هذا المثال يمكن أن يبين لنا بوضوح الفرق بين العمل والنية. بين ظاهر العمل والقصد منه، بين الشكل والمضمون، فقد تتحد الأشكال وتختلف المضامين.

هكذا أمر العمل للدنيا وللدين. والأصل فيها جميعًا النية كما تعلمنا من رسول الله ﷺ في الحديث الشريف الذي ذكره الإمام البخاري في مطلع صحيحه بعد حديث بدء الوحي:

"إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى".

فالذين هاجروا إلى الله ورسوله جعلوا الإسلام بين أعينهم هدفًا كبيرًا. ولقد مارسوا التجارة، وتعلموا، وجاهدوا، وبنوا الدور، وتزوجوا وأنجبوا، وعاشوا حياة كاملة، في آفاق الأسرة والمجد والسوق والمجتمع. وما دامت هذه القنوات جميعًا تصب في نهر الإسلام فالمسلم على خير.

ولكن ما نهر الإسلام هذا ؟

إن كل عمل تبتغي به وجه الله هو في حقيقته عبادة، يستوي في هذا عمل العامل وبحث العالم ومذاكرة الطالب وكسب التاجر وحراسة الشواطئ والجندي وابتكارات المبدعين في دروس العلم المتعددة والمتكاملة.

إن الشاب إذا خرج يعمل على نفسه ليُعِفَّها عن السؤال فهو في سبيل الله. وإذا خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله. وإذا خرج يسعى على زوجه فهو في سبيل الله. وإذا خرج يسعى على ولدٍ له صغار فهو في سبيل الله. وإذا خرج يسعى رياءً ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان، هكذا تعلمنّا من المصطفى عليه الصلاة والسلام.

على هذا يمكن أن نقسِّم الأعمال إلى ثلاثة أقسام ولكل منها مستويان:

**الأول**:أعمال هي من سعي الآخرة مباشرة: كالصلاة وصلة الأرحام.

**الثاني**: أعمال وأنشطة تتصل بعمارة الحياة والرقي بالإنسان: كطلب العلم على مستوى الفرد، والتنمية على مستوى الجماعة.

**الثالث**:أعمال يبدو فيها طلب الدنيا ذاتِها والعلو فيها دون اختيار دقيق للوسائل المحققة لذلك.

ووراء ذلك أعمال هي من الشر الواضح كالتجارة فيما حرّمَ الله والترويج للعصيان.

أما القسمان الأول والثاني ففيهما مستويات من خلوص النية لله تعالى. والمؤمن فيها أشد حرصًا كلما كان العمل أشد اتصالاً بالآخرة.. فالعالم الذي يعظ الناس، يقوم بذلك علنًا وفي وضوح. وعليه أن يحرص على خلو عمله من الرياء والسُمعة وحب محمدة الناس، وأن يقصد به وجه الله وحده. إن الصائم يستطيع أن يخفي صومه وبخاصة في صيام التطوع. والمصلي يستطيع أن يفرغ إلى ربه في صلاته، فلا تطلع عليه إلا عين الله التي لا تغفل ولا تنام.. والعالم عند إعداد أوراقه يفرغ لها، ولكن حين يلقي الدروس ويحاور تلاميذه، هو يواجه المجتمع، فكيف يمكن التمييز بين الإخلاص لله وحب محمدة الناس؟ إن في سير الصالحين من سلفنا نماذج رائعة لهذا الإخلاص.. وأقرب ما وضعوه من موازين، هو سرور العالم حين يرى علماء من حوله تتفتح مواهبهم، وأن منهم من تفوّق عليه وأفاد الناس أكثر منه. إنه حين يحسّ هذا التفوق في أخيه ويدعو له بالخير فهذا من الإخلاص، وإذا انقبض قلبه فهذا من حب الذات. أعاذنا الله من انقباض القلب إذا رأيت حولنا من يحسن الدعوة إلى الله..

أما عن عمران الحياة والرقي وبالإنسان، فباب التنافس فيها أرحب. ومن طبيعتها أن يحدث فيها تنافس. ولكن إذا حرص الإنسان على عدم إيذاء الآخرين. وصعد ولكن بأسلوب شريف دون خديعة ولا التواء، وأعان بالنصح والتأييد من يرى فيه الخير، أو كبا به جواده في مسيرة الحياة.. فهذا إلى الإخلاص والتقوى أقرب. والنية وحدها هنا لا تكفي، وإنما التعبير عنها بالعمل الصالح. وخير الناس أنفعهم للناس.

أما القسم الثالث فالناس فيه بين راغب ومكره ألقت به ظروفه في هذه السبيل. أما الراغب في ذلك فهو المصر على المعصية والكسب في العاجلة مع إضرار بغيره. وأما المكَره الذي ألقته ظروفه في هذه الأجواء، فعليه بكل التعقل أن يدع ما يريبه إلى ما لا يريبه، وأن يتقي الشبهات وهو في هذا يستبرئ لعرضه ودينه.

ولقد نصحنا الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود نصيحة هي لنا طريق وميزان فقال: "من كان مُستَنا فليستنَ بمن قد مات، فإن الحيَّ لا تؤمن عليه الفتنة. أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة: أبرّها قلوبًا، وأعمقها

علمًا وأقلها تكلفًا. اختارهم الله لصحبة نبيّه ﷺ ولإقامة دينه. فأعرفوا لهم فضلهم. واتبعوهم على أثرهم، وتمسّكوا بما استطعتم من أخلاقهم وبسيرهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم". (تيسير الوصول ١: ٣٢) أخرجه رزين رحمه الله.

(٧)

## وما كان عطاء ربك محظورًا

يقول الله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (الإسراء: ٢٠).

بعد أن ذكر الله تعالى صنفين من الناس هما: الذين يريدون العاجلة والذين يريدون الآجلة، وبيّن جزاء كل منهما في الدنيا والآخرة، بيّن أن عطاءه يصل إلى هؤلاء وهؤلاء، وأن عطاءه ليس محظورًا.

وكلمة "نمد" تدل على اتصال العطاء وأنه ليس ممنوعًا، بل لكل مخلوق منه نصيب. ولكن: هل لنا أن نقف قليلاً عند بعض هذه القوانين التي يسير عليها العطاء. أقول "بعض" فهذا هو الذي يبدو لنا، ونحاول به تفسير مسار العطاء.

يبدو ـ والله أعلم ـ أن هناك مجموعتين من القوانين:

**الأولى**: هي القوانين الطبيعية، التي ترتبط فيها المقدمات بالنتائج.

**الثانية**: هي القوانين الأخلاقية، وهي التي تحدد المستوى الأخلاقي للعمل الذي يقوم به الفرد أو النشاط الذي تمارسه الجماعة.

وهاتان المجموعتان من القوانين نراهما في حياتنا اليومية، ويمكن أن نوضحها ببعض الأمثلة.

عدد من الطلبة يتقدمون إلى الامتحان، هناك قدرات عقلية تعتبر هبة من الله لعباده، تدخل فيها عوامل وراثية، وعوامل غير وراثية. هناك ظروف اجتماعية يحيا فيها الطالب: كتوفر الجو المساعد على الدراسة، والرعاية الصحية والعون والتغذية الملائمة.. أو أن تكون العوامل مما يعوق الطالب عن التحصيل. وهناك عامل الإرادة وهي تصميم الطالب على التفوق، ورغبته وقدرته على التركيز في عمله. وفي هذا يستطيع طالب أقل ذكاءً أن يتفوق على طالب أو طلبة، أعلى منه

في مقاييس الذكاء. كذلك تستطيع أن تضيف الأثر العملي للاستقامة الأخلاقية على حياة الطالب وقدرته على الإنتاج، بكل ما تورثه التربية الأخلاقية من القدرة على مزيد من العطاء. وفي هذا المقام نعالج الجانب الأخلاقي من ناحية الأثر مع الإنتاج الطبيعي، لا من حيث مستواه الذاتي ومدى ما فيه من خير.. بعبارة أخرى: نعامل الأخلاق كعامل من عوامل التفوق. ولا تختلف في هذا عن المستوى الصحي أو الظروف الاجتماعية.

هذه المجموعة من العوامل تتأثر بها نتائج الطالب.. ولا يختلف العامل أو التاجر عن ذلك من حيث ربط الأسباب بالنتائج الطبيعية. ويستوي في هذا أن يكون الطالب مسلمًا أو غير مسلم. أن يكون عربيًا أو يابانيًا أو أمريكيًا. فهذه قوانين طبيعية تنطبق على الجميع.

نأتي بعد هذا إلى المجموعة الثانية وهي الأخلاقية. والأخلاق لها منبعان أساسيان: أولهما الدين وما فيه من الأوامر والنواهي. وكل دين له ناموسه الأخلاقي أو كتابه الذي يتبعه المؤمنون بهذا الدين. وقد تتلاقى الأديان في بعض هذه الأصول. وقد تختلف في بعض الفروع. ولكن لا يختلف دينان في الدعوة إلى الصدق في القول والعمل، إلى العدل في الغضب والرضا، وإلى احترام النفس الإنسانية، والنهي عن السرقة والكذب، والدعوة إلى مساعدة الضعيف.. هذا مصدر أول. وهناك مصدر ثانٍ هو الفطرة. هو العقل في ذاته. وفيه لقاء مع الدين في تحسين الحسن وتقبيح القبيح.

والحديث طويل في العلاقة بين العقل والدين. وفي اعتبارهما مصدرين للمعرفة وميزانين لأعمال الناس. فالدين لا يُخاطب به إلا العاقل. والعقل ممدوح في القرآن وفي كل دين. ولا تعارض في الإسلام بين صحيح المنقول (وهو الدين)، وصريح المعقول. وسترى فيما تستقبل من القول هذا اللقاء كأوضح ما يكون اللقاء بين الدين والعقل، كيف تقوم الأخلاق الإسلامية على هاتين الدعامتين معًا، وتصدقهما أحداث التاريخ والواقع الذي عاشه ويعيشه الناس.

وتأتي المشكلة من أن عملاً من الأعمال قد يكون من حيث قوانينه الطبيعية وربط مقدماته بنتائجه سليمًا ومنضبطًا، ولكنه مدانٌ أخلاقيًا ودينيًا وقانونيًا.

ولنأخذ مثالاً لذلك من الجريمة المنظمة، وبخاصة في العالم الغربي وفي أكثر دولة تقدمًا. هناك للجريمة منظمات على درجات عالية من التنظيم

والكفاءة العلمية وتوزيع الاختصاصات والتخطيط.. وهذه تقوم بأعمالها الإجرامية، من سرقات وتهريب مخدرات واغتيالات وإرهاب بكفاءة عالية.

فمن حيث القوانين الطبيعية التي تربط المقدمات بالنتائج، تستطيع هذه العصابات أن تنجح في أعمالها وتؤكد وجودها في مجتمعاتها. يستوي في هذا أن تكون السرقة من مصرف من المصارف أو من ذخائر كنيسة أو مسجد.. فما دام التخطيط دقيقاً فسيؤدي إلى نتيجته.

وإذا كان هذا العمل ناجحًا طبيعيًا، فهو مُدانٌ أخلاقيًا وقانونيًا. وهنا نجد التعارض الواضح بين القانونين: الطبيعي والأخلاقي.

ولو وسعت الدائرة إلى مجال الدول، وما بينها من حروب وما تقوم به من ابتكارات في عالم التسليح، وما تتوصل إليه في غزو الفضاء، وكيف تضع هذا في خدمة أمجادها القومية.. بل لو توسعت إلى مجال الطب والتعمق في أسرار الحياة الإنسانية وهندسة الوراثة والدأب العميق والواسع والمتواصل في القضاء على الأمراض التي لا زالت تحير الإنسانية كالسرطان أو التي ظهرت حديثًا كضعف أو انعدام المناعة في جسم الإنسان.. لو نظرت إلى هذا كله، لوجدنا جهودًا علمية، بعضها راجح في الميزان الأخلاقي وبعضها متهم ومدان.

وعلينا أن لا نخلط بين الأمرين أولاً: فالنجاح في الحياة اليومية على مستوى الفرد والجماعة والدولة، له قوانينه التي تنطبق على المؤمن والكافر دون أن تفرق بينهما، ثم يأتي الميزان الأخلاقي لما يقوم به الفرد من أنشطة وهذا ميزان آخر.

وتأتي المشكلة أحيانًا من الخلط بين القانونين، وأثر كل منهما. فقد يتصور شاب أنه ما دام على خُلُق كريم لابد له من أن يتفوق على أقرانه، وإن كانوا أكثر منه دأبًا في التحصيل والعمل. إن الأخلاق جزء من تكوين الشخصية، ولكنها ليست كل الشخصية.

وليس معنى أن يكون المسلمون على أخلاق طيبة، أن يتفوقوا في مجالات الإبداع العلمي والاختراع.. فهذا يحتاج إلى صبر وتعاون في المعامل ومراكز البحوث وجهاد من نوع آخر.

وإن الذي يدعو إليه الإسلام هو الإفادة من القانونين معًا: القانون الطبيعي والقانون الأخلاقي. وأن يكون علمنا راجحًا فيهما معًا. فنأخذ بالأسباب ـ بكل

الأسباب المتيسرة لنا ـ ونبذل كما يبذل غيرنا الجهد المنظم في كشف أسرار الكون والحياة والنفس، وألا يكون النجاح فقط هو الهدف، ولكن النجاح الشريف. النجاح الراجح في الميزان الأخلاقي.

نعود بعد هذا إلى قول الله تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ نعم هؤلاء وهؤلاء يمدهم الله من عطائه وفق القوانين التي تسير بها الحياة. وللنجاح مفاتيح من أدراها في أبواب العلم انفتحت أمامه الأبواب. ومن أدراها في أبواب الرزق رزقه الله. ومن ضرب في الأرض متاجرًا يبتغي من فضل الله، وسلك الطريق، وصل إلى ما لا يصل إليه القاعد.. فإن السماء لا تُمطر ذهبًا ولا فضة. والطير تغدو من أوكارها باحثة عن رزقها، وتروح على فراخها حاملة إليها طعامها بعد بذل الجهد.. هكذا الطير والنمل والنحل .. الكل يسعى .. هذا هو القانون الطبيعي .. أما ميزان العمل ومدى ما فيه من حلال أو حرام.. فهذا هو ميزان الأخلاق.. والدين يجمع الميزانين جميعًا: أن تأخذ بالأسباب، مع خلوص النية واللقاء بين طيب القول والعمل.

## (٨)

## التفضيل في الدنيا والآخرة

يقول الله تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء: ٢١).

والنظر في مفهومه العام معروف لنا جميعًا وهو توجه آلة الحس البصري ـ وهي العين ـ إلى المُبْصَر. ولكن شاع في كلام العرب استعماله في النظر المصحوب بالتدبّر وتكرير مشاهدة الأشياء للاعتبار. وهو لغويًا لا يقتصر على الرؤية العينية، ولكن قد يقصد به التأمل وحده.

فمما يدل على مجرد الرؤية دون تبصّر وتدبر قول الله تعالى في وصف المنافقين: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ (التوبة: ١٢٧).

ومما يدل على اللقاء بين الرؤية والتدبر قول الله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴾ (عبس: ٢٤ـ٢٧).

ومما يدل على مجرد التدبّر قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (الحشر: ١٨).

والنظر في الآية الكريمة يجمع بين الرؤية والتأمل معًا. والرؤية في الآية تمتد لتشمل الماضي والحاضر. والقرآن يفسّر بعضه بعضًا. ولنقرأ قول الله تعالى:

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ثم تمتد لتشمل الربط بين الدنيا والآخرة، وهذا تمام الآية ﴿ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (يوسف: ١٠٩) هذه الرؤية، وهذا التدبر.

وفي القرآن معنيان آخران للنظر:

أولهما الرحمة. وذلك قوله تعالى في سورة آل عمران واصفًا من يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلاً ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (آل عمران: ٧٧).

والمعنى الثاني هو الانتظار. وذلك قوله تعالى في سورة يس ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾ وقوله في سورة ص: ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾ ومثلها ما جاء في سورة الأعراف في قصة آدم وإبليس: ﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي أجلّني.

فهذه أربعة أوجه في معنى النظر، يرتبط منها الاثنان الأوليان بما نحن بسبيله في شرح قوله تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ والنظر يقتضي المعرفة الممتدة على مستوى الفرد والمجتمع والإنسانية في شمولها، والممتدة في تاريخ الإنسانية. وهذه الإحاطة ليست في مقدور فرد أو هيئة محدودة، وإنما المقصود أن تتكون لدى المسلم نظرة شاملة يحس فيها أمرين: